

شعراء.. وظرفاء! (١ من ٢)

الشعر.. ذلك الإلهام النازل على رؤوس مستحقية - عندها يكون حقاً شعراً - الحامل لعصارة حياتهم القاسية، المليء بتجاربه في دنيا لا ترحم. الشعر.. تلك الكلمات الصادرة عن قلب إما قد احترق في حب محبوب واكتوى بناره، فخرجت منه كلمات نارية حزينة، تستدر الدموع من العيون.. وإما كلمات صادرة عن قلب قد امتلأ بفرحة طاغية، فخرجت منه «سيمفونية» رائعة، تطرب النفس لسماعها.. وإما.. وإما.. وهذا هو الشعر، صورة نفسية لما كانت عليه نفس قائله، وتاريخ لسجل حياته، وحكم من عصارة تجاربه، ومنهل يرتوي منه من أراد أن يتعلم.. فيه الحلاوة والمرارة والفرحة والحزن والألم.

وفي الماضي.. عندما كان الأب يريد لإبنه أن ينشأ نشأة الرجال، ويكون فارساً لا يشق له غبار، فإنه كان - وقبل كل شيء - يرسله للبادية، ليتعلم أشعار العرب وأمثالهم ليستقيم لسانه. وكان البيت الواحد من الشعر قادراً على أن يرفع قبيلة إلى عنان السماء، ويخسف بأخرى لأسفل سافلين.. وأشعار «جرير» في هذا الأمر معروفة.

فيحكى أن قبيلة يقال لها «أنف الناقة»، كان أهلها مطاطني الرؤوس دائماً بسبب هذا الاسم الذي أضحك عليهم كل القبائل والعشائر، لكن الذي حصل، أن الشاعر الكبير «جرير» كان قد سمع بمأساة هذه القبيلة المنكوبة باسمها، فلم يتردد لحظة وهو يمدحهم بقوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا
ولا تسأل عما حصل بعد ذلك؟! لقد ارتفعت تلك الرؤوس المطاطنة، وعلت تلك الهامات المنكسة.. ومن مثلك يا أنف الناقة!! والعكس تماماً ذلك الذي حدث مع قبيلة «نمير»، فقد هجا «جرير» واحداً منهم فقال فيه:

فغض الطرف إنك من نمير

فلا قيساً بلغت ولا كلابا
فما ارتفعت بعدها لهم هامة.

وهذا هو الشعر.. سلاح ذو حدين.. فدعونا نعيش مع أصحابه - الشعراء - ذلك الصنف من خلق الله، الذي يرق تارة فيكون أرق من نسمة هواء عابرة، ويغضب أخرى فيكون كبركان ينفث ناراً لا ترحم.

ولن نتعرض في هذا المقال ولا الذي يليه لأغراض الشعر المعروفة من مدح وهجاء وغزل لذاتها، بل سنركز على الشعراء أنفسهم، فسنستعرض في هذا المقال أولئك الشعراء المتشائمين، والظرفاء الضاحكين، لننتعرف من خلال أشعارهم على كوامن نفسياتهم وعجائب أحوالهم. ولنبدأ مع ذلك الصنف المتشائم من الشعراء، ولابد أن لتشائيمهم هذا أسباباً، وهو ما سنعرفه منهم عما قليل، عندما يُنفسون عما في صدورهم، فننتقل منهم العبرات والآيات التي قد تعتبرونها مغرقة في الخيال، أو أن فيها تحاملاً.. ولكن - للأسف - فيها من الصحة شيء، لاحظته من لاحظته، وجهله من جهله.. ونرجو ألا يراه من لم يره.

نبدأ مع هذا الشاعر الحزين - أبو الحسن القيرواني - الذي لاقى الأهوال مع.. تخيلوا مع من؟ مع إخوانه، أقرب المقربين إليه.. فقال فيهم:

وإخوان حسبتهم دروغاً

فكانوها ولكن للاعادي

وخلتهم سهماً صائبات

فكانوها ولكن في فؤادي

وقالوا قد صفت مناً قلوب

لقد صدقوا ولكن عن ودادي

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به

وإن ذكرت بشر عندهم اذنوا

أما الثالث - وما أدراك ما الثالث - فهو ناظم على البشر جميعاً، ويقر قاعدة قد نراها للأسف حقيقة في هذا الزمان.. يقول (ابوسليمان الخطابي):

كم معشرا سلّموا

لم يؤذهم سبع

وما نرى بشراً

لم يؤذه بشر
ما رأيكم بهذا المتشائم؟ اليس فيلسوفاً عندما قرر هذه القاعدة؟ السننا نجدتها منتشرة في هذا الزمان؟ أترك لكم الحكم.

ودعونا نستمع لـ «ابن بَرِيٍّ» وهو يقول في صديق له، تخلّى عنه وجفاه بعد أن قلّ ماله.. فقال فيه:

يا من جفا وقلاً

نسيت أهلاً وسهلاً

ومات «مرحب» لما

رايت مالي قلاً

إني اظنك تحكي

بما فعلت القرى

والقرى هو طائر يصطاد السمك، يكثر عند وجوده، ويختفي عند قلته، والمعنى واضح. وفي جمران الصديق قال «الناشيء الصغير» أيضاً:

إني ليهجرني الصديق تجنياً

فأرهبه أن لهجره اسبابا

واخلاف إن عاتبته اغريته

فأرى له ترك العتاب عتابا

وإذا بليت بجاهل متغافل

يدعو المحال من الأمور صوابا

أوليته مني السكوت وربما

كان السكوت عن الجواب جوابا

ولذا لا تعجب الآن وأنت تسمع هذا المينوس منه وهو يقول:

أما الوفاء فشيء قد سمعت به

فما وجدت له رسماً ولا أثرا

فلا اطلب مخلوقاً به ابداً

ولا الوم على غدر أخا غدا

ومن توهم في الدنيا اخا ثقة

فإنه بشر لا يعرف البشرا

إن كلامهم لا يخل من واقع مر استمعوا بخبرتهم

قد لا يكون لسرور في نفوسهم، أولجدر فرح في قلوبهم، ولكنه قد يكون ظرفاً في هجاء، أو في وصف، أو حتى مجرد انعكاس لموقف مؤلم حَزَّ في قلب أحدهم، ولم يستطع عليه ردّاً إلا النظم مطرفاً، وقد قالوا قديماً: شر البلية ما يضحك.. فدعونا ننطلق.

نبدأ هذه المرة مع البخلاء.. والبخل من الصفات الذميمة، المنقصة من المروءة، وهو موجود مذ خلق الله البسيطة ومن عليها، إلى أن يأخذهم.. وكان بسبب وجود مادح الكريم أن يوجد هاجي البخل، وفي كثير من الأحيان يكون المادح والهاجي هو نفسه، وفي أحيان منها أيضاً يكون المدوح والمهجو هو أيضاً نفسه.. فسبحان الله - وهؤلاء هم الشعراء، فلا عجب.. قدم رجل على بخيل في آخر الليل، فردّه البخل، فخرج الرجل وهو يقول:

اتيت عمراً سحرًا

فقال: إني صائم

فقلت: إني قاعد

فقال: إني قائم

فقلت: آتيك غداً

فقال: صومي دائم

وقال آخر في بخيل مات:

قضى متمول باللؤم والبخل اشتهر

واليوم شيع نعشه بجنائز فيها عبر

لم يبيكه احد ولم يذكره بالحسنى بشر

ولقد سمعنا خلفه رجلاً يصيح إلى سقر

أحمد بن علي الصرخي